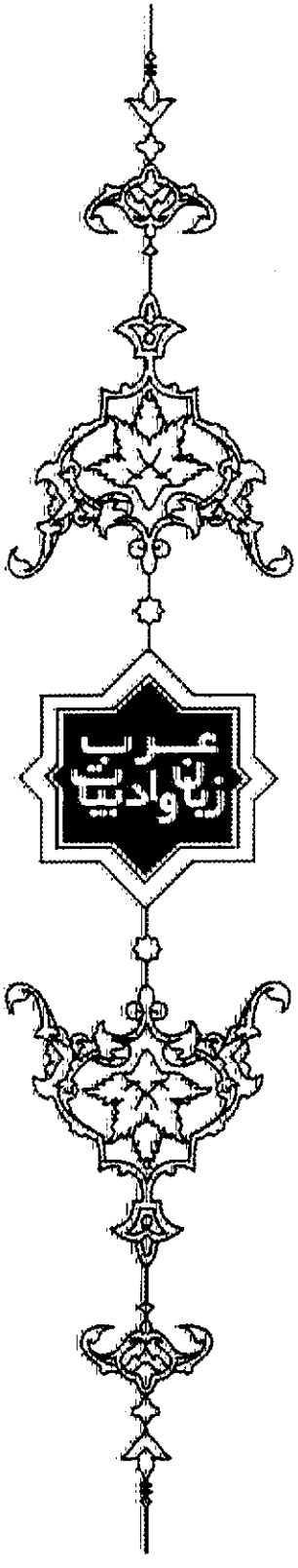


# رابعة العَدویه

## القسم الاوّل

زهرا سلیمانی ـ فارغ التحصیل
زبان و ادبیات عربی

**المقدمة:**

اروع الاساطیر ماشابهت الحقائق، فمن أساطیر النجوم التی لمعت فی السماء شاخصة مؤرقة نجم طلع فی سماء البصرة العراقیة آخر القرن الاوّل للهجرة و بق مرموق الضیاء حتی هوی فی أعقاب العصر الثانی للهجرة متحولاً الی أحدوثة لا تنسی، خلّدتها السطور، و لهجت بها الالسنة و تداولتها بالذکر و التألیف طائفة من الباحثین فی القدیم و الحدیث.

عاشت رابعة فی عصر اسلامی رائع، کان من أقوی العصور التی مرت بتاریخ العرب، فی هذا العصر انبسطت لهم آفاق الدنیا و وافتهم أسباب الحضارة التی تلقاها العرب ممن جاورهم أو تمازج بهم.

و قد جمعت البصرة فی عصرها ضروباً من الاجناس و الثقافات و الاهواء و کانت تعیش فیها طوائف العلم و الفقه، تلقاء طوائف اخری عابثة مترفة، و من طبیعة المدن ذات الثقافة والحضارة أن تحتوي الأضداد.

و من علماء الموالی المخلصین الذین اعتزت بهم مجالس العلم و الدین الحسن البصري الذي آسفه الاضطراب و الفساد فی حیاة المسلمین فرفع صوته بالحق و دعاالی الاصلاح، ثم انصرف الی الزهد و بق یؤدی رسالته و یحملها تلامیذه و اتباعه فی حیاته (حتی) مات و هو امام الزهاد.

و قد شهدت رابعة حلقات هؤلاء التابعین و شارکت فی ثقافتهم و ازدادت معرفتها علی مرور الزمن حتی تقدمت أندادها فی هذا الزهد الذی وافق هواها و قد شهدت حوادث عصرها و أشرفت علی الحیاة الفکریة و الاجتماعیة فی ایامها حتی انتهی أمرها الی المذهب الروحی الذی ابتدعته لتتخلص فیه من الانسان و تتجه الی الله وحده، لأن الانسان لم یحقق أملها فقد عرفته مستعبداً و غابناً فأحست الهدوء فی هذا الاتجاه.

**من هی رابعة العدویة؟**

امّ الخیر رابعة ابنة اسماعیل العدویة البصریة، مولاة آل عتیك و هم قبیلة من قیس بن عدي، تعرف أیضاً بالقیسیة ولیة متصوّفة و صالحة مشهورة من اهل البصرة سمّیت بتاج

الرجال بسبب تسقدمها فی سبیل الفضائل النفسانیة و الکمالات الانسانیة. کانت من أعیان عصرها.[1]

**ولادتها:**

ولدت رابعة فی بیت فقیر عام ۹۵ه (۷۱۳ـ۷۱٤م) أو عام ۹۹ ه، فی لیلة حالکة فاجأ الألم أمها المسکینة ولم یکن عندها سوی زوجها إسماعیل یؤانسها و هو حائر فیما یصنع، فإنّ جیبه خال من أي درهم، و المخاض یشتد و یدنو، و الحیاء و الإباء یصدّانه عن التماس المساعدة و العدة من الجیران، و ما کادت تحسّ زوجته انه فارغ الیدین حتی بکت، و کان الفرج قد أقبل علیها بالسلامة و الأمان، و أخذ صوت ا لمولود یشقّ سکون البیت فی ذلک اللیل الطویل.

و لما سمع إسماعیل هذا الصوت الذی مسّ قلبه و شعوره أشفق أن یکون من بنت وله ثلاث قبلها، و اذا به یتلقی الرابعة فسمیت بعددها، فالله یهب لمن یشاء اناثاً و یهب لمن یشاء الذکور.[2]

**نشأتها:**

کان سکان البصرة آنذاک فریقین: احدهما من السراة المترفین و الآخر من الفقراء و المحرومین، و کان بیت رابعة من هذه البیوت الصغیرة المتداعیة التی یعیش اهلها علی الکفاف أودونه.

لقد نشأت رابعة بین تدیّن و حرمان و عفاف، فأبوها زاهد مستور، و من أدب الزهاد التأبّي علی السؤال، و الاعتصام بالصبر و الایمان، فکانت رابعة علی حداثتها الزکیة و نشأتها الواعیة تشهد مایعانی أبواها من الفقر و الحذر، فانطوت علی نفسها، فهی لا تطالب بمثل ما تطالب به لداتها و عند الطعام أخذت منه قلیلاً، ثم انقلبت حامدة لله هذه النعمة، و رابعة مع أخواتها الثلاث تأخذ عن الوالدین الدین والعفة و القناعة و یسقط الدعاء فی سمعها، و فی غلس الفجر تستیقظ علی صلاة أبیها و هو یجهر بالترتیل، فعرفت أبان تفتحها معنی الحلال و الحرام و دار علی لسانها کلام المتقین و الصالحین نحو قولها الی ابیها فی الطعام الحلال "نصبر فی الدنیا علی جوعنا حتی لا نصبر فی الآخرة علی النار" و کان أبوها یعجب لهذا الکلام الذی لا یدور مثله إلاّ فی حلقات الذاکرین من الزهاد و المفکرین و کأنها رشدت قبل الأوان و لم یطل عجبه لما یلحظ فیها من میل الی العبادة و التقوی.

کانت کلما حفظت سورة من القرآن و تلتها أمامه بخشوع متأنیة فی الآیات متفهمة مغتبطة، یتساقط دمع الأب علی خدیه و یقول:"ربّ لم أعددت هذه الفتاة؟ إنهالیست کلداتها و نظائرها...".

و کم بات ابو رابعة متفکراً فی حزن فتاته، لکنه کان یسمع من شیوخه أن بعض الزاهدین و المتعبدین من دأبهم الحزن و الکآبة، کان یعاینها و هی تنمو فی حداثتها نموا مطرداً، و ینمو معها قلبها و صبرها علی العبادة مثل الکبار.

نام لیلة و هی تقرأ القرآن، و لما فتح عینیه فی الصباح وجدها لا تزال مرتلة مبتهلة، و کأن الدهر اراد قبل أن تقع فیها النکبة و المصیبته أن یعدها للتجلد و الاحتمال، فقدمات أبوها و هی فی مستهل صباها و لم تلبث أمها أن توفیت بعده و ذاقت رابعة طعم الشقاء، اذ فقدت الحنان الذی نعمت به حیناً من حداثته، لکنّها تجلّدت للمصیبة و اتخذت من الایمان و القناعة وسیلة الی العیش یتیمة معدمة، تقلب نظرها الشارد فی وجود واسع مثل ضائع یلتمس هدی السبیل.[3]

**کیف سلبت حریتها؟**

و البصرة فی ذلک الحین لم تسلم بین عام و عام من فتنة أو محنة و یبدو أن قحطاً لحق البصرة، هذه البلدة الزاهرة، فجفت أرضها و أجدبت، و کانت مصیبته تقع علی الفقراء و المساکین، و منهم رابعة و أخواتها فشردن علی وجوههن ملتمسات کسیرات من الخبز و القوت، ولم یکن الجوع یوماً رحیماً او صبوراً، فنزل بأحشاء رابعة، و تضوّرت أخواتها، فقد فقدت هؤلاء الاخوات البائسات، و بقیت بعد ذلك وحیدة تنادی ربّها أن یردّهن الیها و یجمع شملهن.

و بعد هذا وقعت رابعة فی شباك احد السارقین و باعة الرقیق یقتنصون اللواتی شرّدهن الجوع و الهوان، و أخذت تخدم بیت سیّدها الذی کان غلیظ القلب و لم یرحم صباها و حزنها بصمت و طاعة، فإذا خلت رابعة الی نفسها و صلاتها، فادت ربّها بقولها و هی تبکي و تتلهف: "الهی، أنا یتیمة معذّبة، أرسف فی قیود

---

۱) دائرةالمعارف الاسلامیة، ج ۹، ص ۴۳۹. من الترجمة العربیة لاحمد الشنتاوی و آخرون.

۲) السکاکینی- وداد: العاشقة المتصوفة رابعة العدویة،طبقه ۱، دارطلاس، دمشق، ۱۹۸۹م،ص۸

۳) نفس المرجع صفحات ۱۱ـ۱۴

الرق، و أنوء بالقهر و الضيم، لكن همّي الكبير هو أن أعرف، أراضٍ انت عنّي أم غير راض؟"

أرسلها سيدها يوماً الى السوق تشتري له شيئاً، فاعترض سبيلها ذئب من البشر، فرّت منه فزعة مرعوبة، لكن طريق البصرة بما فيه من منعطفات لم يمكنها من النجاة بغير عطب، فوقعت على الارض و انكسرت ذراعها، فتحاملت على نفسها، حتى عادت الى بيت صاحبها، و لما انصرفت الى الصلاة عادت الى مناجاة ربها: "الهي قد انكسرت ذراعي و أنا أعاني الرق و الوجع و سأحتمل الضيم و الهوان، فهل أنت راضٍ عنّي؟ الهي حسبي رضاك".

و في الليل وقفت رابعة تؤدي صلاتها و ذراعها مشدودة الى صدرها، فكانت تجاهد نفسها للتجلّد في هذا الألم، و قلبها يتمزّق من ألم الأسر و الرق و تدعوالله أن يرحمها و يفكّ رقّها، و فيما كانت تتوسل و تتضرع أحسّ سيدها أنها متعبة قلقة، و قدتسرب الى سمعه أنينها و دعاؤها و هي تقول: "الهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، و نور عيني في خدمتك، ولو كان الامر بيدي لما انقطعت لحظة عن مناجاتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك..."

و فزع الرجل مما سمع و أرسل نظره نحوها يتأمّل في خشوعها حتى خيل اليه أنه يرى فوق رأسها سراجاً منيراً يضيء ما حولها، فهب من فوره منادياً رابعة ملتمساً منها أن تصفح عنه و تأخذ حريتها قائلاً لها: "أنت حرة يا رابعة، إن شئت انطلقت حيثماً يروق لك العيش".

اما رابعة فما كادت تسمع كلمة الحرية حتى نهضت، تريد مخرجاً، و ترجو سماحاً و فرجاً.[1]

**اتجاهها الصوفية بعد الحريّة:**

لا ريب في أنّها كانت مثل أيّ اسير حين يفتح له باب السجن، انه لينظر إلى الحياة نظرة جديدة، و يحسّ أنّه خلق من جديد، فانطلاق رابعة بعد الاسر و الرق غيّر مجرى حياتها.

و قال عمر فروخ فيما اشتغلت به بعد الحرية:[2]

"فتكسّبت برهة بالغناء و النفخ في الناي و بما يتصّل بهذين عادة، إلاّ أنها تابت بعد ذلك و حملها ندمها على ماضيها على ان تمعن في الزهد و ترتجف من الخوف من الله."

إنّ في الدنيا أعاجيب، و في العالم خوارق، و هذا نفسه قديكون اتفق مثله لرابعة بعد انطلاقها من عبوديتها، و رُبّ نزوة منها كانت انتقاماً مما عانته في حياتها البائسة، فاذا هامت على وجهها و هي في ريعان صباها، و أغرتها مسحة جمال و فرحة حرية و أمان، فانسابت مع التيار الذي جرف أمثالها من أجل الخبز و خشية التشرد.

و تبدّل النفوس أمره طبيعي، فما ولد احد و ظلّ على شأنه الاول حتى مات، و قد صارت رابعة بعد حريتها من الرق و الاسر الى حياة الغيد المتحررات، عرفت فيها معيشة جديدة، و ضمّتها ليال عاطرة زاهرة و تناءت حيناً عمّا ألفته في نشأتها من انقباض و خشونة و تعفف، أكانت تنقم من تحررها و تبدلها لأنها لم يعصماها من العبودية و الانزلاق؟ أم أن شدة التزمّت و التعنّت و الغلو في الكتب، انقلبا الى الضدّ في حياتها المتغيرة الحائرة؟

ولكن لم يوجد في الكتب التاريخية و الصوفية ما يكشف و يظهر هذا الامر و يؤدي الى الحقيقة و التأكيد. فمن المؤلّفين و الباحثين من تحرّى أخبار رابعة و تقصّاها في عديد من المصادر، فلم يجد فيها ما يلق الضوء على هذه الفترة من حياتها المهمة و لم يقم ثم برهان واضع محتوم على الادعاء بأن رابعة قد انحرفت أو تعسفت بعد أنفكاكها من الرق و الاستعباد، و انفلاتها حرة الى الصحراء، و لعلها تزوجت فشقيت أو أحبت فخابت، و هذا أقرب الى التخمين و التعليل المعقول و كانت الصدمة عنيفة بالغة. يضاف الى ذلك أن رابعة و إن أطلق مولاها أسرها حرة لوجه الله، لكنها خرجت من لدنه معدودة من الموالي، تحسّ قيد الولاء في روحها و قلبها و هو من تقاليد العرب اذ ذاك.

و يمكن ايضاً أن تكون رابعة قد نكبت و خابت في شأن من شؤونها، أو أصيبت بحادثة خاصة، لا ندري ما هي على التأكيد و التحديد، فكانت منها تلك الانتفاضة العنيفة، بل ذلك الانفجار الروحي العميق الذي بدّل حياتها كلّه، و دخلت فجأة في سلك الزاهدين و رغبت عن الدنيا، و هي في عنفوان العمر، فضّل عليها مجالس الوعظ و الذكر.

لقد أحبت رابعة الحرية وهامت فيها،

---

۱) نفس المرجع، صفحات ۱۶-۱۸

۲) تاريخ الادب العربي، طبعة ۵، دارالعلم للملايين، لبنان، ۱۹۸۵م، ج ۲: ص ۱۲۸

قبل أن تنصرف الى حب الله وحده، و فى سبيل هذه الحرية عانى الانسان على الأرض كثيراً من النكبات و الأهوال، و كلما فكّ حلقة من سلسلة عبوديته اشتاق الى تحطيم غير هاحتى يفكها جميعاً، و قد لا يستطيع أن يفكّها كلها، فتبقى فى أعماقه حسرات وغصّة، و رابعة التى ابتليت بالرق و عانت منه كثيراً كان همّها التحرّر التّام و التخلص من كل ما يربطها باستعباد الانسان.

فنشأتها الذليلة الحائرة، و صباها الضائع، و بيعها مثل المتاع، ثم خيبتها مع الرجل، و شرودها فى الصحراء، و قلق حياتها حتى تحرّرت و استقرّت، نمّى فيها الطاقة الاندفاعية و قوّاها. فسعي رابعة بعد خروجها من عند مولاها حرة الى أن دخلت فى الزاهدين المتهجدين و المتصوفين العاكفين جعلها تتذوق الحرية، و تحسها فى الروح و الجسم، و لما اكتمل تحرّرها من الانسان نذرت نفسها لله و عبادته، ليكون هو مولاها وحده، اذ لم يبق فى طاقتها أيّ احتمال لعبودية الانسان، فى أيّ طورٍ من أطواره.

و حين سلكت طريق العبادة و الزهادة، خشية العذاب و النار، و طمعاً فى الثواب كانت تحسّ في روحها عبودية فى ظلال هذا الطريق فازدادت طاقتها اندفاعاً، لتسمو فوق هذه الطبقة و تجاهد نفسها لتصل الى عالم أسمى، فتعلّقت بالذكر في سهرها و جهرها، فى لسانها و وجدانها، و توسّلت بالحب الأصفى و العبادة الخالصة الى ذات الله، و كان الله بها رحيماً.

"و برزت بالزهد و العبادة بين طائفة الزهاد الذين سمّاهم القوم بالمتعبّدين و البكّائين، و من اشهرهم رباح بن عمرو القيسى و سفيان الثورى و مالك بن دينار، و عبد الواحد بن زيد."

"و قد شهدت ليالى عمرها بعكوفها على التهجّد و الصلاة متوسلة مبتهلة و جاهدت النوم طويلاً و حاسبت نفسها حساباً عسيراً و حقّاً كانت رابعة لا تكف عن تعنيف نفسها، إذ تريدها دوماً يقظة مأخوذة بذكرالله، لا تغفل عنه لحظة، و لا تنقاد فى تهجدها لسهو أو فتور، واندمجت فى حلقات المتعبدين و المتهجدين الذين كان التضرع والوله و الخشوع من شيمهم و سلوكهم."[1]

و جمعت فى البصرة حولها كثيراً من المريدين و الاصحاب الذين و فدوا عليها لحضور مجلسها و ذكرها لله و الاستماع الى أقوالها، وكان من بينهم مالك بن دينار، و الزاهد رباح القيسى، و المحدث سفيان الثورى، و المتصوف شقيق البلخي؛ وكان أكثر من حضر مطارحتها و شاركها في العبادة سفيان الثوري الذى أطلق عليها لقب المؤدّبة، فقال يوماً لاخوانه: هلّموا بنا نلم بصاحبتنا، فاني لاأسترع اذا فاتني حديثها، و لما دخلوا عليها مجلسها رفع سفيان يده داعياً: "اللهم إنى اسألك السلامة" فابتدرته رابعة بالبكاء وسألها:"ما يبكيك يا رابعة؟" فأجابته و هي تعرض به: "أنت السبب لقد عرضتنى للبكاء، أما علمت أن السلامة ترك ما فى الدنيا و أنت منغمس فيها"؟[2]

وكانت رابعة من أشد الزهاد انصرافاً عن متاع الدنيا، زهدت في كل شيء، قانعة بما يسدّ الرمق و يستر الجسم، و يقيها السؤال، فالدين وحده كان الشعاع الأعظم الذى أغناها عن كل ما تأخذ به أية امرأة، و قد دارت في زهادتها حول نقطة واحدة كانت غاية الزهد في أيامها و هي الاستخفاف بالدنيا و البكاء من أجل الآخرة خوفاً و شوقاً و التماساً للتوبة و المغفرة.

كانت رابعة ترى أن الانسان لايستطيع أن يحظى بالتوبة اذا استغفر لذنبه فحسب، بل عليه أن يجاهد نفسه، ليظفر برضى الله، بعد أن يتجرد من الخطايا تجرداً تاماً عامّاً، فالاستغفار وحده دون العمل و الابتعاد عن المعصية لا يكون صادقاً، و لهذا أطالت التضرع الى الله بأن يقبل توبتها؛ و "قالت فى التوبة، و هى أول مقامات الصوفية[مجيبة من سألها]: "هل لو تبت يتوب علىّ؟ فقالت: "لا، بل لو تاب عليك لتبت"."[3]

اما تصوف رابعة فقد جاءها من تطور الزهد فيها، تعبد الله في اول أمرها كغيرها من الزاهدين خوف العقاب و التماساً للثواب و هذا هدف الزهد، أما حين تصوفت فقد تصفّت روحها من أكدار الدنيا و تحرّرت من خوف الآخرة، كما أن هذه العبادة الخالصة عند رابعة ملازمة و مقارنة بالتأمل الطويل و التفكير البعيد فى ذات‌الله و أسرار الكون فأدّى بها الى

---

۱) السكاكيني: المرجع السابق، ص ۲۷

۲) جامى- نورالدين: نفحات الأنس من حضرات القدس، اطلاعات، تهران، ۱۳۷۰، ص ۶۱۴

۳) دائرةالمعارف الاسلامية، ج ۹، ص ۴۳۹؛ من الترجمة العربية لأحمد الشنتاوى و آخرون

الانطلاق الروحی وراء الغیب، و هذا شغلها عن کل شیء فی الوجود، و صارت تعابیرها و اقوالها صوفیة تشیر وترمز الی ما ترید، لا بالقول الظاهر، بل بالمعنی الباطن و ماوراء الألفاظ.

و تجدر بنا الاشارة الی انّ التصوف عند رابعة من طبع و موهبة و فطرة لا من تحصیل و تقلید أو تکلّف، فقد ولدت و نشأت متدینة و ازدهرت فیها أسباب الصوفیة دون أن تدري، و کانت الحیاة الاجتماعیة و الدینیة فی زمنها حافزة الیها، فکانت زاهدة، و فقیرة صابرة، و تائبة متوکلة علی الله وحده راضیة بما قسم لها. و قد ظهر منها، منذ طفولتها و صباها، و فی إبان تصوفها و من غیر أن تعلم ما ظهر من العارفین و اهل المقامات و کانت لهاأدعیة تفیض بالشوق و اللوعة، فکم من مرة هتفت اعماقها بهذا الکلام:"الهی، اذا کنت أعبدك خوفاً من النار فأحرقنی بالجحیم، و اذا کنت أعبدك طمعاً فی الجنة فاحرمنیها، أما اذا کنت أعبدك من اجلك فحسب، فلا تحرمنی یا الهی وجهك الکریم".

و کان حبها من طراز أسمی، تأبّی علی البشریة و ارتق الی الانسانیة المثلی، بل تجاوزها الی الذوبان و الاحتراق في حبّ سماوی لم یسبقها الیه احد فی الاسلام. و هذه لمحات من کلمات رابعة عبّرت فیها عن هذا الحب الذی تیّمها و رقّق وجدانها. قالت تناجی محبوبها الاوحد بضراعة و خشوع: "الهی ما أصغیت الی صوت حیوان، ولا حفیف شجر و لاخریر ماء ولا ترنّم طائر و لا رفیف ظل و لا دویّ ریح و لا قعقعة رعد إلاّ وجدتها شاهدة بوحدانیتك، دالة علی أنه لیس کمثلك شیء".

و نخلص من هذا الی أن رابعة تختلف عن متقدمی الصوفیة الذین کانوا مجرد زهاد و نسّاك، ذلك أنّها کانت صوفیة بحق، یدفعها حب قوی دفّاق، و کانت واعیة بأن حیاتها اتصلت بالله. کما کانت من اوائل الصوفیة الذین قالوا بالحب الخاص، الحب الذی لاتقیده رغبة سوی حب ذات الله وحده و کانت من أوائلهم أیضاً فی الجمع بین الحب و الکشف.

سیده مریم میرباقری - ورودی ۷۳
زبان و ادبیات عربی

## المصطلحات الثقافية

المداهمة الثقافية: شبیخون فرهنگی
الغزو الثقافی: تهاجم فرهنگی
التقریر. ج: تقاریر: گزارش
المقرِّر. ج مقرّرون: گزارشگر
المهرجان ج المهرجانات: جشنواره
الصحفی .ج صحفیّون: روزنامه‌نگار
الفنّان: هنرمند
المضمار الثقافی: زمینه فرهنگی
الثورة الثقافیة: انقلاب فرهنگی
التلاقح الفکری: همفکری
المتحضّر: متمدن
الغزو الفکری: تهاجم فکری
المسوخ: خودباخته
الخلاعة الاستهتار: بی‌بندوباری
الرأی العام: افکار عمومی
المسرحیة: تاتر
اجتماع الخبراء: نشست کارشناسان
وزارة التربیة و التعلیم: وزارت آموزش و پرورش
المؤتمر الصحفی: کنفرانس مطبوعاتی
معرض الکتاب الدولی: نمایشگاه بین المللی کتاب
مقابله صحفیّة: مصاحبه مطبوعاتی
منظمة تقییم المستوی التعلیمی: سازمان سنجش آموزش
وصمة عار: لکه ننگ
المضحّی: فداکار، جان‌نثار
جناح المعرض: غرفه نمایشگاه
الخبیر. ج الخبراء: کارشناس
الانسان المتخلّف: انسان عقب مانده (از نظر عقلی)
منحة دراسیة: واحد درسی، بورس تحصیلی
الفصل الدراسی: ترم تحصیلی
امتحان الدخول فی الجامعة: کنکور
تمثیل: هنر پیشگی، نمایندگی
وزارة الثقافة و التعلیم العالی: وزارت فرهنگ و آموزش عالی
الاوساط الادبیة: محافل ادبی
لجنة الامام الخمینی للاغاثة: کمیته امداد امام خمینی